المحاضرة الثانيّة

لحمة تاريخيّة عن تطوّر الدافعيّة

أثارت مسألة الدافعيّة جدلا كبيرا بين علماء النفس؛ وواجهوا صعوبات جمّة في تحديد بعض المفاهيم السيكولوجيّة مثل الذكاء، والابتكار، والشخصيّة وغيرها. وطبيعيّ أن يكون تفسيرهم للأشياء مستندا إلى نظرتهم للإنسان وسلوكه. وحسب الفلسفة التي تقوم عليها مدارسهم. ولكن رغم كلّ الادّعاءات التي يبرّرون بها مواقفهم فهم عاجزون –كما يرى بال - عن الوصول إلى إعطاء صورة كاملة عن الدافعيّة. غير أنّ هذا لا يعني عدم – أيضا – عدم جدوى هذه النظريّات التي تناولت الدافعيّة، بل على العكس من ذلك تماما وبخاصّة في المجال التربويّ حيث تساعد المربّيّ على (فهم أعمق للسلوك الانسانيّ، وتمكّنه من تكوين تصوّر واضح عنه)[1] ونظرا لأهميّة الدافعيّة تناولتها الاتجاهات الفلسفيّة منذ بدايتها، مؤكّدة على الجانب العقلانيّ للإنسان وحريّة إرادته واختياره، فاعتمدت في تميّزها بين الإنسان والحيوان على أساس نوعيّ، وبخاصّة أنّ الإنسان روح له عقل يتحكّم في سلوكاته ودوافعه. بينما الحيوان يتحرّك وفق غريزته.

ترى بعض الاتّجاهات الفلسفيّة ومنها الترابطيّة - ظهرت في إنجلترا وتبنّى أفكارها جون لوك، وهوبنز- أنّ استجابة الإنسان للقوى الخارجيّة ميكانيكيّة. فقد ذهب توماس هوبز Thomas Hobbs" 1588 - 1679 إلى أنّ (الإنسان في جوهره أنانيّ، ميّال إلى التدمير، والوحشيّة)[2]ليستنتج أخيرا - لمنع الفوضى والاضطراب - أنّ كلّ فرد في حاجة إلى أن يستسلم إلى سلطان مطلق. في حين يرى "جون لوك John locke" 1632 - 1704 – وهو أحد الداعين إلى الحكومات البرلمانية أنّ (الطبيعة الأصليّة للإنسان هي المسالمة، والنوايا الطيبّة والميل إلى التعاون مع الغير)[3]وقد دافع كلّ واحد منهما عن رأيه بشراسة وقوة. وقد يتساءل المرء أيّ الرأيين صحيح، ولا شكّ أنّ الجواب قد يعود إلى الاقتناع الشخصيّ أو الخبرة الخاصّة أو على الحجاج، أو غالبيّة الأصوات، وهذا يعني أنّ تصوّر الدافعيّة ناجم عن تأثيرها الشامل في حياتنا. ثمّ جاءت الدراسة العلميّة للدافعيّة باعتماد المناهج العلميّة الحديثة.

النظريّة المعرفيّة:

لا شكّ أنّ (أقدم النظريّات عن الإنسان أنّه كائن عاقل في جوهره وأنّ له رغبات شعوريّة وأنّه يستخدم قدراته في إشباعها)[4] وهي فكرة عاشت في أفكار الفلاسفة القدامى من أفلاطون وأرسطو إلى القديس توماس الأكويني، إلى ديكارت

1

2

3

4

وسبينوزا وهوبز، وهو الرأي العامّ المجموع عند معظم الناس؛ إذ عادة ما يفكّر المرء فيما هو في حاجة إليه، ثم يبحث عن الوسائل للحصول عليه. وكان لإرادة الإنسان دور كبير في هذه النظريّة، إذ تعدّ من ملكات العقل كالتفكير والشعور. ومادام هو قادر على التحكّم في إرادته فهو مسؤول عن أفعاله.

غير أنّ علماء النفس رأوا أنّ الإرادة لا تفسّر المطالب والرغبات لدى الفرد ولذلك اتّجه بحثهم إلى التراث البيولوجيّ للإنسان وإلى خبراته السابقة. بل وجدوا أنّ الإنسان قد يكون على وعي بالدوافع التي تؤثّر في سلوكه. وكانت الدوافع تتميّز عن التفكير وبقيّة العمليّات المعرفيّة الأخرى.

وهناك من يتحفّظ على هذه النظريّة نظريّة الدوافع إذ نجد "جورج كيلي George Kelly" 1905 – 1967 لا يولي أيّ اهتمام للدافعيّة إذ لا يؤمن بأنّ السلوك في حاجة إلى ما يدفعه أو يحرّكه، وإنّما يؤمن بأنّ السلوك نشط على الدوام، وأنّ المشكلة الرئيسيّة تتركّز في اختيار البدائل، والقرار الدي يتوصّل إليه الإنسان إنّما يتوقّف على تكويناته الشخصيّة من أفكار وقيم، واتجاهات نحو العالم)[5] ولذلك نجد كثيرا من الناس لهم تكويناتهم الشخصيّة تؤهّلهم لأنّ يختاروا ما بين الأشياء وهنا يقول كيلي: (قد تجد طائفة أخرى من التكوينات الشخصيّة لدي الفرد بحيث يصبح عليه أن يقرّر الاختيار بين الاستبداديّة أو الديمقراطيّة بالمعنى الواسع لهذين المصطلحين)[6] ومع أنّ هذه النظريّة المعرفيّة تقوم بالتحليل الدقيق للتوصل إلى القرار، غير أنّها تغفل المتغيّرات الدافعيّة. ذلك أنّ بين اختيار أيّ نظام سياسيّ توجد رغبات الناس في تقديرات الذات، الأمن، الغذاء، الحبّ .

نظريّة الغرائز

كان لظهور نظريّة داروين في النشوء والارتقاء أثرها الفعّال في (إفساح المجال لاستخدام الغرائز لتفسير السلوكات الانسانيّة، إذ يرى أنّ الفرق بين الإنسان والحيوان ليس نوعيّا وإنّما كمّيّ)[7] ويرى أنّ بعض الأفعال "الذكيّة" المعيّنة موروثة، أبسطها الأفعال المنعكسة، كالمصّ عند الصغار، وأعقدها ميل الطيور إلى تجنّب الإنسان مع عدم وجود خبرة لها به. وهذه هي التي يسمّيها الغرائز وقد تأثّر بأفكاره كلّ من الاسكتلندي "ماكدوجل" و النمساوي "فرويد"، والإنجليزي وليام جيمس، ويعدّ الأوّل صاحب النظريّة الفرضيّة، invocation التي تفترض وجود رغبات وحاجات ودوافع أوليّة عند الإنسان تنشأ من حياته الفطريّة وقد أسماها بالغرائز)[8] والغرائز استعداد فطريّ عند الانسان. ويعدّ ماكدوجل أكثر المدافعين عن دور الغرائز في السلوك الانسانيّ بأسلوب منهجيّ، حيث يرى أنّ

5
6
7
8

الإنسان (يستجيب وفقا لمبدأ تحقيق اللذّة وتجنّب الألم ويعتبر أن الغرائز هي المصدر الرئيسي ّللسلوك الانسانيّ)[9] وبذلك تكون الغرائز - حسبما يرى - المصدر الرئيسي ّللسلوك الانسانيّ، وأنّ كافّة أشكال السلوك الانسانيّ لها جذورها الغريزيّة. وقد استطاع تصنيف 121 غريزة تؤثّر في السلوك الانسانيّ ركّز منها على حبّ الاستطلاع، العدوان، الجنس، الطعام، الاكتئاب، النفور، الهرب، المقاتلة، تحقير الذات، تأكيد الذات، الوالديّة، التناسليّة، الجوع، الامتلاك، التجمّع، البناء.

أمّا فرويد فقد ركّز على غريزتي الجنس والعدوان. وقد أخذت هذه النظريّة تأخذ صعوبات إذ كلّ باحث يضيف في قائمة الغرائز حتّى وصلت إلى 6000 ستة آلاف غريزة، من بينها غريزة تجعل الإنسان لا يأكل الفاكهة من بستانه. ومع أنّ النقد الموجّه لها كان شديدا لدرجة التخلي عنها لولا أنّ الباحثين الجدد والذين يعرفون بعلماء الأخلاق الاجتماعيّة عادوا إلى النظريّة وانتقلوا من التفكير النظريّ الخامل في الغرائز إلى التجريب في المختبرات، ويربطوا بين السلوك الغريزيّ وما يمكن وراءه من عمليّات أو ميكانزمات فيزيولوجيّة واكتشاف فكرة ظاهرة الانطباع. كما هو موجود عند البط وقصّة البطة الصغيرة القبيحة

نظريّة اللذّة / مبدأ اللذّة

بداية يجب أن نفرّق بين فكرة اللذّة التي تقوم على تحصيل اللذّة وتجنّب الألم، ومذهب اللذّة بوصفه نظاما خلقيّا ينبغي للفرد أن يبني حياته بإرادته على السعي إلى اللذّة وتجنّب الألم؛ إذ فكرة اللذّة محاولة لتفسير السبب لسلوك الناس. ونظريّة اللذّة وإن كانت قديمة إلا أنّها ظهرت بشكل بارز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ترى نظريّة اللذّة وتجنّب الألم أنّ الإنسان يسعى إلى تحصيل اللذّة ، وإذا كان يسعى إلى شيء ما، فإنّ هذا الشيء لذيذ. غير أنّ هذه لقت هجوما عنيفا من المعارضين، لأنّ النظريّة لا تقتضي معرفة خاصّة بخبرات الشخص. لأنّ قد يكون ما يستمتع به شخص هو أذى لآخر، هم يرون أنّها تدور في حلقة مفرغة، وهناك من الناس من يسعى إلى الفشل، هل يجد لذّة في ذلك، والذي ينتحر أين لذّته، كما أنّ جماعة المتطهّرين يرون في اللذّة خطيئة ينبغي تجنّبها.

وقد تجاوز بعض الباحثين من أمثال بول يونج Paul Young" و "دافيد ماكليلاند David McClelland" سلبيّات هذه النظريّة وقدموا لها صورة أكثر رقيّا وتعقيدا عمّا كان سابقا، فقد تجاوزوا التقارير الذاتيّة الصادرة عن الشخص عن اللذّة والألم، ولجأوا إلى مقاييس موضوعيّة لسلوك الاقتراب والتجنّب، فكانوا أصحاب نظريّة تجريبيّة في اللذّة .

9

تستخدم نظريّة اللذّة عند "ماكليلاند" نموذج الإثارة الوجدانية، أي أنّ هناك مثيرات بيئيّة تستثير بالفطرة حالة من اللذّة أو الألم والإنسان بفطرته قد يميل إليها أو يتجنّبها، وتكون درجة الشعور بها – اللذّة أو الألم أي الانفعال – على التكيّف السابق للشخص ومثال ذلك الصوت المرتفع، في الحالة العاديّة يكون مزعجا، ولكن بعد أن يألفه كأن يبقى مدة زمنيّة كافيّة في المطار فإنّه يتكيّف معها ويألفها مادامت حافظت على الدرجة.

تتألّف الدافعيّة عند "ماكليلاند" من توقّعات نتعلّمها. من خلال الانفعالات التي يستثيرها الهدف إيجابا أو سلبا. ومن هنا يتعلّم فيتّجه نحو الأهداف التي عرف من قبل أنّها تثير اللذّة ويتجنّب ما عرف أنّها مؤلمة. ولذلك يقول: (إنّ كلّ الدوافع متعلّمة، فالاستثارة الوجدانيّة فطريّة، ولكن التوقّع مكتسب، وبهذا الشكل يبدو أنّ من الممكن تحوير مفهوم اللذّة إلى نظريّة علميّة مفيدة.

نظريّة الباعث

تعريف الباعث:

أبرز مفهوم في مجال الدافعيّة هو مفهوم الباعث الذي أورده "روبرت وودورث Robert Woodworth " واصفا به الطاقة التي تضطرّ الفرد للقيام بالسلوك. وقد تقبّل علماء النفس نظريّة الباعث لأنّ البحث توصّل إلى البواعث واحدا واحدا من خلال التجارب الدقيقة، وأعطيت لها إجراءات محدّدة. وقد عرّف الباعث تعريفا إجرائيّا فكان: هو (التحديد الدقيق للظروف التي يمكن أن يقال فيها بوجود الباعث والوسائل التي تستخدم في قياسه)[10].فالباعث يصف حالات من الاستثارة الشخصيّة القابلة للتدرج الكمّيّ، وهنا يمكن قياسه، فمثلا نقيس الباعث بعدد ساعات الحرمان من الأكل. وهو منبّه يبلغ من القوّة القدر الذى يكفى لدفع الإنسان إلى النشاط الذى يثير السلوك، فالشعور بالعطش باعث قويّ على الشرب، ويمكن لمثيرات التنبيه الداخليّة والخارجيّة أن ترفع من مستوى الاستثارة، وهنا يطلق على مستوى التنبيه حالة الباعث.

وقد ساعد على تقدّم نظريّة الباعث مفهوم الاتزان الحيويّ، أو ما يسمّونه (الهوميوستاز) التي جاء بها عالم الفيسيولوجيا "ولتر كانون Walter Cannon" سنة 1932 وهو مفهوم يقوم على أنّ (حالة عدم الاتزان تنشأ في الجسم كلّما انحرفت الظروف الداخليّة عن حالة ثابتة سويّة، والبواعث النفسيّة "السيكولوجيّة" هي وسيلة يحاول بها الجسم استعادة اتزانه، ولذلك فإنّ مخزون الغذاء حين ينضب من الجسم ينشط باعث الجوع، ويبدأ البحث عن الطعام واستهلاكه وبذلك تتمّ استعادة

الاتزان)[11]. واستنادا لذلك عرّفت الدافعيّة بأنّها: (البواعث الناشئة عن اختلال الاتزان الحيويّ أو توتّره)[12]

11
12